الفصل السابع

الاخلاق والسعادة

كتب (باسكال) : « يطمح الناس كافة الى السعادة • وذلك بدون استثناء ومهما اختلفت الوسائل المستعملة فانهم جميعاً يتطلعون الى هذا الهدف • وان يجعل بعضهم يمضي الى الحرب ، وبعضهم الآخر لا يذهب ، هو هذه الرغبة ذاتها وهي في الحالتين معاً مصحوبة بنظرات شتى • وان الارادة لا تنهض البتة بأي مسعى إلا نحو هذا الغرض • انه شاحذ كل أفعال الناس جميعاً حتى اولئك الذين سيشنقون انفسهم [1] » • وهذه الملاحظة الاخيرة تبدو مفارقة ، ولكنها صحيحة • فما الذي يتمناه في آخر المطاف من ينتحر إن لم يكن الافلات من ألم يبدو له أنه لا يطاق وهذا الفرار من الالم ، هذا الارتكاس عليه ، هما دليل على رغبة بالسعادة الحقيقية على الرغم من ضياعها • يقول (شوبنهور) : « ان من يخرج من الحياة وهو يغلق الباب بشدة خلفه يشهد على حب الوجود الذي يثير اشمئزازه من القدر البائس الذي أصابه » •

يتضح من ملاحظة (باسكال) ان بعض الناس يختلف عن بعض في تحديد السعادة • فهم يضعونها إما الى الاعلى وإما الى الادنى ، ويعتبرون انها الفضيلة أو المعرفة أو النفوذ أو الجمال أو اللذة ، ولكنهم يتفقون جميعاً على نشدانها • وفي هذا الواقع أوضح هدف تتطلع اليه الارادة الانسانية • وبما انه هدف مرغوب به بصورة ضمنية دوماً ، فاننا لا نشعر بالحاجة الى استهدافه مباشرة • ولئن كان من الصحيح أن الناس كافة لا يصيغون تطلعهم الى السعادة بصورة صريحة فانهم جميعاً يطلبونها باصرار عنيد بالرغم من صنوف الاخفاق وانقشاع الاوهام •

---

(١) خواطر (برنشفيك ص ٥١٨)

Scanned by CamScanner

انا نحجم عن هذا الشكل الخاص أو ذاك من اشكال السعادة ، ولكننا لا نحجم عن السعادة ذاتها البتة . « اننا لا نستطيع الا نفكر فيها ، ولكننا اذا سئلنا لم نستطع ابدا ان نجيب بصدق بقولنا : لا أريد ان اكون سعيداً ، او انني لا اكترث بسعادتي »[1] .

ان شهادات القدامى تمثل صدى التجربة المشتركة . يطرح (سقراط) في محاورة « اوتيميد » لافلاطون السؤال الآتي على (كليناس) : « هل من الصحيح اننا نحن البشر نرغب جميعنا في ان نكون سعداء ؟ ولكن أليس ذلك من جملة الاسئلة السخيفة التي كنت اخشاها قبل هنيهة ؟ ... من ذا الذي لا يرغب في الواقع في أن يكون سعيداً ؟ » ويجيب (كليناس) بدون تردد : « ان الناس كافة يرغبون بذلك [2]» . ويخص (سينيكا) رسالته وعنوانها « في الحياة السعيدة » بالبحث عن شروط السعادة . ولكنه يشاهد منذ السطور الاولى حادثاً تجريبياً : « ان الرغبة في الحياة السعيدة ، يا اخي (كاليون) امر ينشده الناس قاطبة . ولكن اكتشاف ما يجعل الحياة سعيدة أمر لا يراه اي انسان بوضوح» . ويشير القديس (اوغسطين) ايضاً الى هذه المفارقة قائلاً : « إن الناس جميعاً يريدون امتلاك السعادة ، ولكن ثمة تنوعاً كبيرا في المطالب عندما يتناول الامر اختيارها . « كيف يتفق أن يحب الناس كلهم شيئاً يجهله الناس جميعاً! [3]» .

ومن شأن هذا التطلع انه لا يبدو مشيئة عارضة بل وثبة موصوله : حاجة فطرية تنبجس من اعماقنا . وهي تحدد الارادة التي تمثل قبل اية ممارسة في رغبة عفوية بخير كلي . انها تسبق الاختيار الحر وتستبق كل مذاكرة . ذلك انها تعرب عن ارادة ــ حرة تؤلف كياننا ، ولذا فانها لا تكون غائبة ابدا ، بالرغم من الانطباعات

---

(١) ج. دي فينانس : الاخلاق العامة (ص ٣٩١)

(٢) افلاطون : اوتميد (٢٧٩) الاداب الجميلة (ميريديه) (١٩٣١ ص ١٥٤) انظر الجمهورية (ج٤ ، ٤٢٠) الاداب الجميلة ــ ترجمة (شامبري) (١٩٣٣ ص ٤ ــ ٦)

(٣) في الثالوث (٨٠١ ث٤ ب.ل. مين (ج٨ث١٨٠١)

Scanned by CamScanner

المضادة . يقول (ف . الكيه) « اذا شعر الانسان بيؤسه أو باغترا ينجم ذلك عن ان شعوره تطلع الى السعادة ؟ »[1] .

ان السعادة لا تدل على رفاه معين ، بل على رضى كامل يتوج تو تفترض بادىء ذي بدء التحرر من كل الم . ان من يشعر بالم جسدي او معنوي أو روحي لا يستطيع ان يحظى باستراحة تامة : بل يستمر له اللارضى . وهذا العنصر السلبي يستلزم تتمة ايجابية : امتلاك جميع التي في متناولنا . ان الذكاء يتطلع الى كل الانوار التي تستطيع انارته تتطلع الى جميع العواطف التي تستطيع تتويج قدرته على الحب ، وا تتطلع الى فرح حالص .

وهذه الوفرة من الثروات تقتضي طمأنينة ديمومة طويلة . ان نهاية ، يشعر بقلق ضمني يمنعه من أن يكون راضياً رضى تاماً . ولا بد من أن تكون مستقرة ، بل وحاسة ، حتى تكون تامة . وهي ترفد من اعمق رغباته بجواب أخير ، لانها تستند الى طبيعة الانسان ذاته . وه المحاورة التي جرت بين (سقراط) و (ديوتيمه) الغريبة والتي حكاه في « المأدبة [2]» :

ـ لنر يا (سقراط) ، ان من يحب الاشياء الطيبة .. ماذا يحب ؟

ـ (اجبت) ـ ان ينتهي باستيلائه عليها .

ـ وماذا سيكون حال الانسان بعد امتلاكه الاشياء الطيبة ؟

ـ انه سعيد .

ـ (قالت) ـ : الحق ان السعداء هم سعداء بامتلاك الاشياء ا

---

(١) افلاطون : المأدبة (٢٠٤ـ٢٠٥ ـ الاداب الجميلة ترجمه ١٩٢٩ ص ٥٢)

(٢) عزلة العقل . الارض الغامضة (١٩٦٦ ص ٦) . انظر (ج . لو مشكلات فلسفية (تيكى ١٩٣٣ ص ٢٦٨ وما بعد)

Scanned by CamScanner

يبقى للمرء ما يصنع من طلبات اخرى مما يتمنى أن يكون سعيدا من يتمنى : على العكس ، يبدو تماماً ان الاجابة قد تمت » .

الا يعني قبول أن تكون السعادة خيرنا الاسمى سلخ الدور الرئيسي عنها ، وهو الدور الذي يخصها باعتبار أنها غاية الانسان القصوى ؟ ان الاخلاق تصبح تقنية السعادة ، مجرد وسيلة لنكون سعداء . وان المنفعة تحل محل معنى القيمة كما هي الحال في مذهب اللذة او مذهب المنفعة . ولا تبقى الاخلاق نظاماً عقلياً : انها تفقد سلطتها ويكف الالتزام عن ان يكون لا شرطياً . ما من آمر قطعي ، بل لا يوجد سوى توجيه شرطي : اذا اردت ان تكون سعيدا فافعل الخير واجتنب الشر . وبذا ينتهي اتسام الاخلاق بسمة المطلق .

ومن الجدير بالذكر لحل هذه المعضلة ان نعرّف بعناية مفهوم السعادة . انها لا تدل على جملة اللذات التي يمجدها الخيال . وهي ليست حلماً بـ « سرور حياة يصحب الوجود بدون انقطاع » كما قال (كانت) الذي يحتج ضد هذا المسخ . ان السعادة ليست منظر رفاه ، حتى ولو كان جسيما . وان ذات السعادة لا تمثل بالدرجة الاولى في الشعور بجمال نتيجة متوافرة ، وبصعاب خطيرة متخطاة . يقول (ب . ريكور) ، حتى لو أن الخيال قد حدد نقطة السكون هذه — تحديداً غير محدود ، فهو إنما يكرر هذه النقطة ويديمها وهو يحسب أنه يخلدها ، ويظل الخيال في منظور نهائي زمناً غير محدد ، منظور التلذذ بالذات [1]» .

ان السعادة تبدو غير ذلك تماماً . انها الدليل الواثق لنزعاتنا ، والقطب المطلق لتطلعاتنا ، والافق اللا محدود لنظراتنا . وهي باتساعها وكثافتها تفيض عن عالم الاشياء . وقد عارض (ارسطو) الاماني الشخصية لرغباتنا الكثيرة بالسعادة الحقيقية التي اسماها « المفضّل الاقصى » ، « الوحيد المرغوب به بذاته » ، تاج الحياة الكاملة . ويحتاج تعريفها الى القدرة على سؤال « المشروع الوجودي للانسان باعتباره كائناً لا يقبل التجزئة ، وان التنقيب عن الفعل الانساني وعن أوسع

(١) النهائية والشعور باللذة ، ج١ — اوبيه ١٩٦٣ ص ٨٢ — ٨٣

Scanned by CamScanner

اهدافه واقصاها يميط اللثام عن ان السعادة هي نهاية مصير وليست نهاية رغبات فريدة ، وبهذا المعنى السعادة كل وليست مجموعاً . وانما تنفصل في افق السعادة الاماني الجزئية ، والرغبات المنتشرة في حياتنا »[1] . ويترتب على العقل الذي يملك حس الكل ان يميز السعادة الصحيحة المعتبرة خيرا اسمى عن السعادة المتخيلة على انها جمع رغبات راضية . وهو يكشف في هذه التمنيات الجزئية التطلع العام شطر الخير الاسمى .

وعلى هذا النحو يتضح البون الذي يفصل اللذة عن السعادة . الاولى هي حال انفعالية تستجيب لميول الحساسية خاصة ، انطباع سطحي عابر . والاخرى توقظ استجابة اعمق ، وهي حال رضى تام يملأ الشعور . وهذا هو التعريف المذكور في معجم (لالاند) مصحوباً بايضاح مستمد من (كانت) : « السعادة هي رضى جميع ميولنا سواء باتجاه الشمول ، اي الكثرة ؛ أو باتجاه الشدة ، أي بالدرجة ، أو المستقبل المنظور ، اي بالمدة »[2] . وهي تمثل في الشعور بانسجام كامل وبملء الحياة . وهي تفترض استقرارا مطلقاً ، بوصفه غاية تامة للذات بالذات »[3] .

يقال أحيانا ان الاخلاق هي « علم الحياة السعيدة » . وهذه العبارة تحتاج الى تدقيق . ذلك ان الاخلاق ليست سبيلاً لنيل اكبر جملة من اللذات . انها علم ما يناسب كائناً مزوداً بالعقل . وان الحياة الجيدة لا تعني اذن الاستمتاع بالرفاه، بل بالحري ان يصبح احدنا انساناً بالمعنى الاتم وان نفوز بما نرغب به بصورة عميقة بحسب مطلب العقل . ان السعادة ترتبط بتحقيق طبيعتنا تحقيقاً تاماً لانها وعي سعيد بانجازنا ذاتنا انجازا تاماً .

ان لمفهوم الخير الاسمى وجهين متكاملين : مثلا اعلى للكمال ، قيمة متعالية، من جهة ، ارضاء كبيرا من جهة اخرى . فان يتطلع الانسان الى الخير بالذات

---

(١) ب. ريكور : المصدر السابق ص (٨٣)
(٢) لالاند : معجم الفلسفة التقني والانتقادي ـ مادة (سعادة) .
(٣) ج. لاكروا : معنى الحوار (نيوشاتل لاباكونير ١٩٤٤ ص ١١٩)

Scanned by CamScanner

يجد خيره ما دام غير مزود بالغرائز والحساسية وحسب ، بل ايضاً بالعقل وبالحرية، ولا مناص من ان يرجح الفاعل الاخلاقي جانب ارضاء ذاتي للمثل الاعلى الذي يشعر بالاتساق معه . وان الموضوع العميق لارادتنا هو القيمة باكثر منه السعادة. وان جاه الخير يبدّ الشعور السار الذي يصحبه . وبكلمة وجيزة ، « السعادة ، والكمال ، والفضيلة ، والجمال الاخلاقي ، والمتعة الجديرة بالانسان ، امور مترابطة ولكن بعضها لا يختلط ببعض . ان الكمال في الطليعة ، والجمال الاخلاقي انعكاسه . والفضيلة وسيلته ، والمتعة حصيلته ، والسعادة تصفه باعتباره مرغوباً به في نظر العقل »[1] .

لقد أشار (كانت) الى هذا الترتيب المنطقي . ان فعلا لا يكون اخلاقياً الا اذا كان شاخذ موضوعه متصفاً بالصفة الاخلاقية . فلو انه كان مطروحاً ابتغاء اللذة وحدها لم يكن له سوى ظاهر الخير ويكون الفعل عملاً مغرضاً . وبالرغم من ذلك فان (كانت) ، حين حذف بصرامة كل اعتبار غريب عن الواجب ،انتهى الى اخلاق لا انسانية . ذلك ان الامل بمكافاة ، اذا لم يكن الوحيد حصرا ، لا يهدم تخلق فعل من الافعال . وان الخير بذاته والسعادة الانسانية مفهومان متكاملان. وان تحقيق احدهما يؤدي بصورة طبيعية الى الفوز بصاحبه . وبالرغم من ذلك فمن المناسب تمييز احدهما عن الآخر : ان القيمة الاخلاقية بالنظر الى انها تفترض سلفاً للرضى الناجم عنها ، فان هذا الرضى لا يمكن ان يدخل في تعريفها .

ينتج مما تقدم ان الاخلاق العقلية هي اذن اخلاق السعادة ، ولكنها ليست مذهب اللذة الفاضلة المغرض . انها وثبة حب وليست بحثاً انانياً عن اللذة . «ان السعادة هي بالدرجة الاولى موضوعية ، انها حال مبنية ، موضوع حكم يحبذها العقل السليم باتظار اطمئنان الحساسية اليها . وان تعريفنا لها مستمد من اعتبار

---

(١) سرتيلانج : اسس الاخلاق والمناقشات الحديثة (في مجلة الفلسفة كانون الاول ١٩٠٢ ص ١٤٩). انظر دي فينانس : محاولة في الفعل الانساني (ص ٣٥٢ – ٣٥٣)

Scanned by CamScanner

ما نحن ، وليس ما يمكن ان نشعر بـه . وهذه السعادة هي ، بذاتها ، كمال ،جمال الكائن المزدهر بحسب القانون ، وتبعاً لطبيعته . (١)

* * *

في وسعنا ان نتساءل هل يستطيع الانسان أن يجد السعادة القصوى فيمختلف الخيرات التي تعرض له : اللذة ، الرفاه ، العلم ، الفضيلة ؟

ان انصار مذهب اللذة ومذهب المنفعة يعتقدون ان السعادة هي في اللذة الحسية ، وان دعا (ابيقور) في الحق الى اللذة الفاضلة ، وألحف (ستورت مل) على جانب الكيف في مطلب اللذة ورجحه على جانب اللذة الحسية . وهم جميعاً يتفقون على اعتبار أن الانسان انما يتخذ غايته القدر الاكبر من المتع . وقد كانت تلك ايضاً نظرية (كاليكلس) التي عارض بها (سقراط) . وعلى الرغم من ثغرات كثيرة نفسية وتاريخية ينطوي عليها هذ الرأي فان من الثابت ان السعادة ترتبط بالخير الاسمى الذي يتوج رغباتنا ويراد لذاته .. غير أن اللذة لا تتسم بهذهالسمة المطلقة . فلو تحقق لها ذلك لكانت القاعدة القصوى التي تقاس بها سائر الخيرات ، فاذا كان كل امرىء حكماً في لذته ، فان معيار التخلق قد يغدو ذاتياً خالصاً ، فردياً خالصاً . وسيكون العالم غابة وحوش مفترسة . ويبقى مذهب اللذة الانانية السمجة هو الامين على منطق مذهبه . ولكن تاريخ الفكر يبين ان مذهباً جذرياً من هذا النوع لم ينجح البتة في فرض ذاته زمناً طويلاً . فهو لا يفوز ببعض النجاح إلا شريطة تحوله بأن يقيم بين اللذات سلم قيم باسم العقل .

ولا بد من الاعتراف في هذه النقطة بان (ستورت مل) يصحح نفعية

---

(١) سرتيلانج : المصدر المذكور (ص ٢١) . وينتهي (ديكارت) الى النتيجة ذاتها في الرسالة التي بعث بها بتاريخ ١٨ آب ١٦٤٩ الى الاميرة (بالاتين): « هناك فارق بين الغبطة ، والخير الاسمى والغاية القصوى او الهدف الذي ينبغي ان ترمي اليه افعالنا : ذلك ان الغبطة ليست الخير الاسمى ولكنها تفترض وجوده سلفا وهي رضى الفكر أو سروره الناجم عما يملك ولكن غاية افعالنا يمكن ان تدل على هذا او ذاك ، لان الخير الاسمى هو بلا ريب الشيء الذي يجب ان نتطلع اليه ونتخذه هدفا لكل افعالنا ، وان رضى الفكر الناجم عنه ما دام هو الجاذب الذي يجعلنا نطلبه ، فهو ايضا يسمى بحق خيرنا » (طبعة آدم وتانري ج٤ ص ٢٧٥) .

Scanned by CamScanner

(بنتام) الضيقة . فهذا الاخير يرى ان جميع اللذات تكافأ ، ولكن لا مناص من التفكير للحصول على اكبر قدر ممكن ، تبع « حساب اللذات » الذي يقتصر على تقديرها الكمي . وقد اتبع (ستورت مل) الطريقة الاختيارية ذاتها ، وأدخل في الوقت ذاته ، في « حساب اللذات » اعتبار كيفيتها . ان بين اللذات ، في الواقع، تسلسلاً قيمياً يستند الى الطبيعة . فاحدى اللذات هي بذاتها اثمن من سواها ، ومن ثم ، فانها مطلوبة على نحو أعظم .

يقول (ستورت مل) : « لئن وضع الذين يتحلون بكفاءة الحكم على هاتين اللذتين احداهما في منزلة أرفع جدا من الاخرى وفضلوها عليها مع علمهم بانها مصحوبة بعدم ارضاء اكبر .. فاننا نقدر على منح المتعة المفضلة على هذا النحو سمواً كيفياً يفوق كثيرا الكم ، وان الكم يغدو حيالها ضئيل الشأو »[1] . ان الانسان السوي الذي خبر اللذات العامية واللذات النبيلة يرجح بحزم ترجيحاً جلياً جداً هذه اللذات الاخيرة : لاننا نملك « شعورا بالكرامة » يحملنا على ارادة الخيرات الاعلى حتى ولو كانت مرتبطة بقدر من اللارضاء . ان السعادة الحقيقية تمثل في اللذات الرفيعة . ويؤكد (ستوت مل) فوق ذلك تقدم المصلحة العامة لان السعادة الجمعية تفوز على اللذة الفردية . ولذا ينبغي التطلع الى ارضائها .

وهذا التغير في المنظور يدخل تصحيحاً مهماً على نفعية (بنتام) أو انه بالحري ينتهي الى نفيها « ان المطالبة بتقديم الخير المشترك على الارضاءات الفردية ، ومعارضة « اللذات النبيلة » بـ « اللذات العامية » ألا يعني انكار القيمة المطلقة للذة بذاتها حتى يستعاض عنها بمعيار مستمد من العقل ؟ ان ذلك يمثل رجوعاً الى فلسفة قيمة الخير الاخلاقي .

ومن ناحية اخرى فان شهادة الوجدان البشري تدل على افلاس مذهب اللذة الحسية . وقد فضح اخلاقيو جميع العصور عوز اللذة ووهنها من حيث هي لذة

---

(١) ستورت مل : النفعية ـ ترجمة (تانس) (بريفات ١٩٦٤ ص ١٠٠ ـ ١٠١) .

Scanned by CamScanner

واوضحوا اللاستقرار الذي يصيبها . وخيبة الامل التي تصحبها . وقد اعترف (جيد) نفسه بذلك قائلا : « لقد أغنتني كل رغبة باكثر من امتلاك موضوع لذتي ذاته، وهو امتلاك زائف دوماً »[1] . ان تحقيق الرغبة يسلخ عنها في الواقع جاذبيتها الاولى ، وهي تولد من الانتظار والامل . وتتكشف اللذة على انها موهومة جزئياً بقدر ما انها تجلب نفعاً جزئياً بدل السعادة المطلقة : « والحق اننا نريد ما يجاوز كل احساس ، ولا نستطيع الاكتفاء بما تقدمه . فنحن في الاحساس ، ومن خلاله ، نستهدف شيئاً آخر . اننا اولا نطمح اليه طموحنا الى غاية . ثم ما ان يقترب حتى يصبح شبحاً ، وان شفافيته تجعلنا نشعر سلفاً بواقع وراءه يبدو لنا اذ ذاك على انه وحده المرغوب ، وها ان الاحساس بذاته يفقد لونه ، وقوامه . ويغدو فارغاً ، حلماً خامداً بارداً ، ونحن نستعجل تجاوزه »[2] .

ويزداد ذلك صحة عندما يأتي ذات يوم الاخفاق والالم خاصة فيددان الاوهام . « ليس بجائز ، بل ايضاً ليس بضروري استنزاف معين العالم حتى نشعر باننا لا نتقع غلتنا فيه . ان مرارة أقوى . وانذاراً أقسى ، وهو مباشر على نحو اعظم ، ينبئنا عن التناقضات الوقحة التي تتعرض لها : وهذا الدرس هو العناء الموصول الناجم عن جوهرنا الانساني الفقير والذي ارغم مثل هذا القدر الجم من الانتظار بان ترتفع ، ومثل هذا القدر الكبير من الاذرع بان تمتد طلباً للتحرر »[3] .

اجل ، ان الفوائد الناجمة عن زيادة الرفاه الحالية ، وزيادة الراحة والكماليات فوائد لا تنكر ، ولكنها لا تسحر ظمأنا للسعادة . وقد قيل بهذا الصدد ان من

---

(١) الاغذية الارضية (طبعة ٥٥ ـ كالمار ١٩٢١ ص ١٩)

(٢) لوروا : مشكلة الله (ص ١٦٧) . وقد كتب (بلوندل) بصدد الميل الى اللذة : « ان الكون لا ينجزها . وان الاقتراب من الهدوء هو ابتعاد عن الرغبة ، وان الارادة التي تجتاز بما يشبه الوثبة كل الارضاءات الظاهرة التي تصادفها ، انما تجد نفسها بعدئذ حيال فراغ امتع على الصبر » (العمل ـ الكاه ١٨٩٣ ص ٣٢٨)

(٣) بلوندل : المصدر السابق (ص ٣٢٨)

Scanned by CamScanner

العبث ان يتقن الانسان منعامه فانه لن يزيد من عدد وجباته ولا من كمية ما يستطيع تمثله . وان اختراع وسائل انتقال جديدة لا يحذف التعب . وان اللذة الحسية ترضي حاجة أو تزيل حرماناً بأكثر من ان تجلب تحسناً حقيقياً . انها تمحو العناء ، والجهد ، والرغبة . ولكنها لا تغني الشخصية ذاتها ولا تسبب ازدهارها . بل انها تضعفها في الغالب . وعلى هذا النحو تفهم ضجر وشكاوى اولئك الذين اتخمتهم الثروة ولم يكن لديهم ملجأ فكري ولا ثروات معنوية .

ان اللذة والرفاه لا يكفيان اذن لتتويج تطلعاتنا التي هي أعلى جدا . فالانسان على نقيض الحيوان الذي يجد رضاءه في غرائز نوعه . يمتاز بتحديد غاياته الخاصة بفضل ذكائه وارادته : « ان الرغبة الطبيعية بالسعادة اشبه باطار فارغ : وان ملء هذا الاطار بلوحة او برسم زيتي محدد انما يتعلق باختياري الحر »[1] وان الشخص يتمنى كلما تقدم لذات أرهف يطلبها من الفكر او الادب او الفن . وان الحضارات تدعوه الى ارضاءات أنبل . اعقد . وتثير حاجات اعلى للجمال . والنور ، والعدالة . وهي تبذر خميرة قلق لا تستطيع اللذة ارضاءه . وقد لاحظ (الآن) ان للسعادة درجات ، او بالحري ان هناك سعادات من انواع مختلفة . ففي أدنى درجة توجد سعادة المصادفة . كأن يكون المرء غنياً ، قوياً ، مطلوباً ، جيد الصحة . وان يُعمَّر ... وهذا النوع من السعادة يعجب به الجميع ويرغبون به ، ولكن اولئك الذين يملكونه يبدو أنهم لا يتذوقونه .. وان جميع هذه الخيرات اشبه شيء بالصحة . فنحن نرغب بها منذ فقدها ، ولكن ما ان نحوزها حتى نكف عن التفكير فيها وتتجه على الفور الى اية مغامرة أو غزو ، حيث نقامر بالصحة ، والثروة ، واللذات العاطفية .

فاذا كان ذلك كذلك . أترى الانسان يعثر على سعادته في العلم والثقافة ؟ ثابت ان التقدم العلمي والتقني يحدث رضى عظيماً بتوسيع آفاق الفكر وتحقيق

---

(١) ج . مارتان : تسعة دروس في المفاهيم الاولى للفلسفة الاخلاقية (تيكي ١٩٥١ ص ٨٣) .

Scanned by CamScanner

سيطرتنا على الطبيعة . ولكن معلوماتنا أنأى عن بلوغ الكمال . وقد وضع (باسكال) من قبل الانسان بين لانهايتين ، لانهاية الكبر ولا نهاية الصغر ، وأبان انه لا يكاد يسبر غورهما . ومنذ ذلك الحين اخذت صورة الكون في نظرنا ابعاداً تتسع باطراد ، ولكن رغبتنا في المعرفة ظلت ظمأى . ذلك أن نمو العالم يفتح بدون انقطاع حقولا جديدة ويضاعف اتصالاتنا بالسر . ولكن ما اعظم الجهود التي ينبغي ان ننفقها ، والعقبات التي ينبغي تخطيها لكسب المعرفة ! « ان علمنا ليس سوى ذبالة متأرجحة وسط ليل غامر »[1] .

ولو فرضنا ان العلم قادر على ارضاء حاجاتنا الفكرية فانه لا يستطيع انجاز امنياتنا كلها . يقول (بلوندل) : « اننا عبثاً نطلب الى العلم ان يمدنا باسباب فعلنا ، بقاعدة تركيز افعالنا ، بتفسير تام للحركية الانسانية ، بقانون لذة ،ومنفعة، وسعادة[2] » . فالعلم غير محدد من الناحية الاخلاقية بل انه حيادي ، وهو لايفرض توجيهات على الوجدان . انه غريب عن الخير والشر . وان استعمالنا له يتبع حريتنا .

ان المعرفة ، وان كانت كاملة ، تجلب خير الذكاء ، ولكنها لا تجلب خير الانسان كله . وان للحساسية والقلب والارادة مطالب عميقة خارج نطاق العلم. فاذا لم نرضها امتنع وجود سعادة حقيقية . ان العلم وحده غير كاف . ولا بد من اكماله على الاقل بالحكمة والفضيلة .

ولكن هذه الخصال لا تنجح كذلك في بلوغ هذا الهدف ، على نقيض رأي الرواقيين . يقول (شيشرون) : « السعادة هي الغاية التي يخضع لها الرجل الخلوق كل شيء : واذن فالسعادة جديرة بالمدح ، ولكن شيئاً لا يليق به المدح بدون الفضيلة . واذن فان السعادة تتبع الفضيلة وحسب »[3] . وهو يلخص في مكان

---

(١) محاولة الان : البحث عن السعادة (دار النشر الجامعي الفرنسي ١٩٦٨ ص ٣٥) .

(٢) لوروا : مشكلة الله (ص ١٤٧) . انظر (ارشامبو) دفاع عن القلق (باريس ١٩٣١ ص ١٩ وما بعد) . دي فيناس : الوجود والحرية (فيتل ١٩٥٥ ص ١٩ ومابعد) .

(٣) المقالات التوسكولامية (٥) ٤٨ ترجمة (همبرت (الاداب الجميلة ١٩٣١ ص ١٢٠ .)

Scanned by CamScanner

آخر رأي الرواقيين : « ان الفضيلة لا تحتاج الى اللذة ، بل تكفي ذاتها بذاتها لتحقيق حياة سعيدة »[1] .

وقد كافح القديس (اوغسطين) هذا الوهم سلفاً بابرازه عجز فضيلتنا ووهنها . ونحن نشاهد دوماً خصومة متصلة بين الجسد والروح ، بين الاثرة والكرم . العجب والتواضع . ومن جهة اخرى . من ذا الذي يستطيع التبجح بانه يبلغ الفضيلة الكاملة ؟ فلو فعل ذلك أحد لبرهن على ان خصلة واحدة على الاقل تعوزه : التواضع . « اننا مع الاسف امبراطورية منقسمة على ذاتها .. وعندما نتحدر بصدق واجلال الى ينابيع وجداننا يستيقظ شعور ويتأكد دوماً باطراد كلما تعلمنا معرفة انفسنا .... الشعور بان ارادتنا ذاتها تفر منا حين نبقى ذواتنا . الا ان التفاوت في كل مكان . وهو تفاوت مضحك رهيب بين الحلم والفعل ... ونحن نبقى ممزقين بين أمانٍ متضادة : اننا اكبر باسراف من ان نقتصر على مجرد حياة حيوانية . ونعجز في الوقت ذاته عن الاقامة بدون رجعة في الحياة الروحية [2] » .

المرح والنجاح اذن دور في الحياة الانسانيه : وللرفاه والعلم والفن والحب والفضيلة مكانتها فيها . وان لها قيمة صحيحة ، ولكن محدودة ، فهي لا تؤلف الخير الاقصى ولا تجلب لنا السعادة الكاملة .

كثر هم الفلاسفة الذين يبرزون اليوم مفارقة وضع الانسان في العالم مثل (برغسون) و (بلوندل) و (لوروا) و (لافيل) و (لوسين) و (سرتيلانج) و (غابريل مارسيل) و (دي فينانس) . ذلك ان الانسان يتمنى من كل قلبه السعادة الكاملة ، ولكن الخيرات الجزئية التي يلقاها لا تستجيب لهذه الامنية . انه ينزع بدون انقطاع الى معرفة الحقيقة معرفة اعمق ، والى الاتصال بالخير اتصالا اوثق . وعلى هذا النحو تظهر عظمته ونهائيته ، ثروته ، وعوزه . أفلا يشهد عجز النسبي عن الاحاطة بامانيه لصالح المطلق ؟

---

(١) شينرون : غايات الخيرات . ترجمة (مارتا) (الاداب الجميلة ١٩٢٨ ص ٤١) .

(٢) لوروا : مشكلة الله (ص ١٥١ ـ ١٥٢) .

Scanned by CamScanner

لقد وصف (افلاطون) في اسطورة الكهف وصفاً رائعاً السجناء الذين ينتقلو من الظل الى نور الشمس . وتلك هي صورة الروح التي ترقى من الخيرات الناقصة الى الخير الاسمى . يقول : « ان في الحدود القصوى للعالم المعقول توجد فكرة الخير .. الذي لا نستطيع رؤيته بدون أن ننتهي الى معرفة انه السبب الكلي لكل ما يوجد من خير ومن جمال ، وانه هو الذي خلق في العالم المرئي النور وهو النور ، وان من الواجب رؤيته حتى تسلك بحكمة في حياتنا الخاصة او في الحياة العامة »(١) .

ان الخيرات الجزئية ، بالرغم من سرورنا بها ، هي انعكاس خير أعمق وأدوم ومن خلال هذه الرموز تشارس فتنة المثل الاعلى الذي يجتذبنا . وان جاذبيته تدعم تحفزنا شطر هدف هو دوماً أنأى . ونحن نشعر به شعورا مسبقاً ونحبه ان نظرنا ورغبتنا يتطلعان مباشرة الى اغراض محدودة ، دقيقه ، ولكن زاويه النظر المتجه اليها تجاوزها وتتسع باطراد : وتمضي لتضفي على الافق الداخلي صور مكبرة . اننا نريد خيرا « نهائياً » . وان حركة قيمية تمضي الى أبعد على الدوام تحملنا . ونحن نعتقد ان هذه اللذة ، وهذا النفع ، وهذه السعادة ستحقق امانينا ذلك اننا قد اضفينا عليها من قبل اصباغ ألوان أغنى ، ووهبناها من اللانهايه نعوتها : الملك والخلود : على نحو ان يكون هذا المثل الاعلى هو الغرض الواقعي لبحثنا ، بالرغم من اننا ندركه ادراكاً غامضاً .

« العصفور حبيس قفص الزجاج يبدو مسحوراً بالبلور الذي يصطدم به . ولكن ذلك مجرد ظاهر ما دام البلور ، وهو يريد اجتيازه . ان ما يجتذبه هو النور الذي يسر من خلال البلور ، والمشهد المرسوم خلفه . وكذلك : أليس النهائي بوصفه نهائياً هو الموضوع الحقيقي للرغبة الانسانية ، ما دامت هذه الرغبة :

---

(١) الجمهورية (٧) ٥١٧ ترجمة شامبري (الاداب الجميلة ١٩٦١ ص ١٤٩ ـ ١٥٠) .

Scanned by CamScanner

بعد اتجاهها اليه : تتابع دربها . ان الارادة تكسر السجون الزجاجية كلها : ولذا فانها مصنوعة من اجل اللانهاية »[1] .

فعلى نقيض الحيوان . ينزع الانسان نحو المثل الاعلى لانه قادر على ان يفكر بذاته ليعرف شروط فاعليته . وان هذه القدرة على التفكير، وهي تتضاعف تضاعفاً غير محدود . انما تمنع الرغبة الانسانية من الاكتفاء النسبي . فالفكر يرقى من دائرة الى دائرة حتى يبلغ التطلع الى دائرة المطلق حيث لا يستند (المثل الاعلى) حاسة الحاجة الا من ذاته .

آمن (دانتي) بان روحنا تفيض عن حدود المكان والزمان وتمنح وجودنا مضمون خلود . وكان كبار مفكري الاغريق القدامى يعرفون أن افضل نجاح يصيبه العقل انما يصدر عن ما يعلو على الانسان . فقد كان (سقراط) يؤمن بـ « سلطانه » ويتبع وحيه . وكان (ارسطو) يضع الخير الاسمى وينبوع خلودنا فيما يجاوز العلم والفضيلة النسبية . وجعل (افلاطون) (ديوتيمه ذي مانتينه) تمدح (الجمال الاسمى) في « المأدبة » بقولها : عندما يتأمل انسان الاشياء الجميلة . شيئاً فشيئاً بحسب ترتيبها الدقيق ... فانه سيدرك فجأة جمالاً ما من نوع رائع .. جمالاً توجد له اولاً الحياة السرمدية التي تجهل الكون والفساد . النمو والذبول . ثم انه ليس جميلاً في نقطة . وقبيحاً في نقطة اخرى .. جميلاً في نظر هؤلاء الناس وقبيحاً في نظر سواهم . وليس هذا ايضاً كل شيء : انه لن يتمثل هذا الجمال في صورة وجه مثلاً أو يدين ... وكذلك لا يتمثله موجوداً في شيء ما يتميز . ومثلاً في كائن حي . سواء على الارض أو في السماء. ولكنه يتمثله بالحري في ذاته وبذاته . وانه مرتبط ارتباطاً سرمدياً بذاته بوحدة الصورة . في حين أن سائر الاشياء الجميلة تسهم في الجمال الملمح اليه » . وتخلص (ديوتيمه) الى القول بأن هذا الجمال يحقق « الجميل بذاته وحده » .

---

(١) فالسان : نظرات على افلاطون وديكارت وباسكال (اوبيه ١٩٥٥ . المدخل ص ٢٢) .

Scanned by CamScanner

وقد اقام (لافيل) موازاة موحية بين الفكر والمثل الاعلى . ان الباحثين يجعلون احدهما ضد الآخر احياناً . كما لو ان الفكرة هي امتلاك الذكاء حالياً للواقع . والمثل الاعلى تطلع القلب الى مستقبل مرموق . وهذا خطأ : « قد ينسى المثل الاعلى بتعبير أدق فكرة العمل: اذا صح أن خاصة العمل هي وضع الفكرة موضع التنفيذ . ذلك ان الفكرة لا تفصلنا عن الواقع الا من اجل ان تتيح لنا احداثه »[1] وعلى هذا النحو يتضح اتصال العمل بالنظر . والفكر بالواقع . وانبجاس الفاعلية القيمية من صميم كيان الانسان ، ومن خلالها يكن : ويجب . البحث عن مثلب السعادة .

★ ★ ★

Scanned by CamScanner